يكتسب احتفالنا* هذا العام بتوزيع جوائز فلسطين، في سياق احتفالات بيت لحم باستقبال الألفية الثالثة، طابعاً خاصاً، ويتميز بنكهة ذكرى نورانية، وبلسعة أمل قوية في الرجوع إلى التاريخ، بعد قرن من الصراع على هذه الأرض الطيِّبة المعذبة، أُريد لنا فيه البقاءُ خارج الأرض والتاريخ.

ولكننا هنا، بأبسط الشروط وأقساها، هنا، على حافة المهد الذي انطلقت منه رسالة النور والمحبة والسلام. هنا، للدفاع عن حصتنا الطبيعية من معاني الرسالة التي خرجت من بلادنا إلى العالم... وللدفاع عن حقنا الطبيعي في أن نكون كما ينبغي لنا أن نكون، جزءاً من مسيرة البشرية إلى مستقبل لا يستحوذ فيه أحد على أحد، ولا يطمح فيه أحد إلى احتكار الأرض والسماء.

إن تكريم مبدعينا الذي أصبح تقليداً وطنياً سنوياً، على أرض وطنهم، هو تعبير عن عودة المعنى إلى النصّ، وعن عودة النصّ إلى السياق، وعن عودة الروح إلى حق العودة. صحيح، أن سُنُونُوَّةً واحدة لا تصنع الربيع، ولكنها تبشِّر به على الأقل. وسيبقى الربيع ناقصاً إلى أن يتطابق مفهوم السلام مع عناصر تكوينه الأساسية: الحق، والعدل، والحرية.

لذلك، ستبقى أسئلة الإبداع الفلسطيني متوترة بين بحثها عن حياتها العادية الطبيعية وعن استراتيجيات جمالياتها الجديدة العابرة لزمنها الراهن... وبين ضرورات انخراطها في سؤال واقعها المتأزم وشرطها التاريخي الذي لا فكاك منه. ذلك، لأن مشروعنا الوطني في الإستقلال والسيادة لم يُنْجَزْ بعد، مما يُبقي سؤال الهوية القلقة والدفاع عن الذاكرة الجماعية وعن روايتها التاريخية، وعلاقة الذات بالآخر... أسئلةً ساخنة الحضور.

بيد أن ذلك لا يُسَوِّغ تأجيل أسئلتنا الذاتية، وواجب التأمل النقدي في تجربتنا الوطنية، من أجل صياغة تصور متقدم لمجتمعنا المدني الديمقراطي التعددي، في إطار دولتنا القادمة التي لا ننظر إليها باعتبارها هدف الأهداف النهائية، بل هدفاً وطنياً يستمد أهميته من كونه إطاراً لا بُدَّ منه للتعبير عن الإستقلال والهوية الوطنية، ووسيلةً لتطوُّر المجتمع والطاقات البشرية، وتحرر الإنسان من كل ما يعيق تفتُّح إنسانيته.

لقد خرجت فلسطين من صورة الفردوس إلى ذاتها وإلى واقعها، كما هي وكما هو، عارية من جماليّات الإستعارة البعيدة الشَّبِقة. كما هي، أرض صراع مرهقة بالجمال وبالإحتلال، وأرض بشر تعجّ بالفقراء وبالأغنياء، بالطهارة والفساد، بالماضي الجديد وبالمستقبل القديم، أو بالعكس... لتخوض صراعها مع الآخر ومع ذاتها على تحديد صورتها القادمة: هل هي حُرَّة أم أَمَة، مستقلة أم تابعة، صحراوية العقلية أم ساحلية الأفق. بوليسية أم ديمقراطية، هل هي أختُ بعض أخواتها، أم أن التجربة علَّمتها كيف تأتلف وكيف تختلف؟

وما «صدمة الوطن» التي أصابت بعض كُتّابنا العائدين إلاّ نتيجة طبيعية لخروج فلسطين من المتخيَّل إلى الواقعي، من الميتافيزيقيا إلى التاريخ، بعدما صنعتها مخيِّلةُ المنفيّ على قَدْرِ متطلباتها، طيِّعة للحنين ولمفردات الرحيل إلى الأندلس.

وما «صدمة السلطة»، من ناحية أخرى، إلا نتيجة طبيعية لخروج السلطة من صورتها المتخيلة البعيدة، من صورة الأوديسيين الجدد، أو صورة المولودين على ظهور الخيل... إلى واقع التجربة العملية التي تفتقر إلى التراكم وإلى شروط التأسيس الطبيعية، والإحتكام إلى مرجعية قانونية نهائية، لذا تمر في التجربة والخطأ، دون أن يتبلور خطابها بعد.

لكن الصدمة خير من الوهم، لأنها بداية الوعي الجديد بواقعنا الجديد. وليس لنا من وطن غير هذا الوطن.

محمود درويش

* قيلت هذه الكلمة في حفل توزيع جوائز فلسطين لعام ١٩٩٩، في جامعة بيت لحم.